

# جماعة الطاووسية

بقلم : نيكيتين B.Nikitine

فرقة شيعية نسبت إلى شخص يسمى آغا محمد كاظم تنباكوفروش الإصفهاني المشهور بطاؤوس العرفاء، وهو الذي انشق عن نعمة الله (A History of Peraian Browne Literature ج٣، ص ٤٦٣-٤٧٣ عن السيد نعمة الله الكرمانى مؤسس هذه الفرقة) فبعد موت رحمت علي شاه الشيرازي (خليفة مستعلى شاه مؤلف كتاب بستان السياحة) الذي كان يمثل الفرقة في أصفهان امتنع طاؤوس من أن يعترف بخليفته حاجي آغا شاه، ولما طرده العلماء من أصفهان عام ١٢٨١ هـ (١٨٦٤-١٨٦٥ م) نزل في طهران بمساعدة مريده: (رضا قلى خان سراج الملك بيشكار ظل سلطان في القسبة)، وهناك توفى عام ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦ م) بعد أن حج إلى مكة، ودفن في شاه عبد العظيم،

ولم يكن طاؤوس صاحب علم، وقد سمي (( طاؤوس )) لحبه الثياب الجميلة بما في ذلك من قلة الاتفاق مع التصوف، ولكنه كان يلقب بدرويش سعادت علي، ولم يخلف طاؤوس أحد أبنائه بل خلفه شخص يدعى حاجي ملا سلطان، من كتاباد الذي يمكن أن نعهده المنشئ الحقيقي لمذهب الطاؤوسية والمنظم لجماعتهم.

نشأ حاجي ملا يتيماً رباه عمه وعانى شاباً غاية في المشقة، فلم يبدأ دراسته إلا في السابعة عشرة من عمره، وقد تعلم في مشهد، ثم في كربلاء والنجف، وكان لا بد له في أثناء ذلك من أن يعمل ليكسب عيشه، وبعد أن انتهى من دراسته تولى التدريس مدة من الزمان في مدرسة الصدر في طهران، لكنه اتهم بالبابية فاضطر إلى الهرب وذهب إلى خراسان، لكنه في طريقه إليها نزل حيناً في سبزوار ليسمع دروس حاجي ملا هادي أحد العلماء المشهورين في عصره، وهناك لقي طاؤوس بين تلاميذ آخرين من مثل (السيد أحمد أديب بشاوري)، ثم إنه بعد أن تكمل في علوم الحكمة والعرفان ذهب إلى أصفهان قاصداً طاؤوس، وقد شعر طاؤوس بالزهو أن يستقبل ملاً عالماً ليكون مريداً له، ثم صار حاجي ملا سلطان أحد أخصاء

طاووس، وبعد ذلك صار خليفة له، واستطاع أن يزيد عدد الأتباع في كنياد شيئاً فشيئاً بفضل مهارته وبفضل التأييد من جانب سراج الملك ومن جانب ميرزا حسين الذي كان عاملاً آخر لظل سلطان، وبعد أن صار في عام ١٢٩٣هـ (١٨٧٦م) قطب الطاووسية توفي عام ١٣٣٧هـ (١٩٠٩م) بعد حياة طويلة ناشطة ولم يتول ولداه: (نور علي شاه وصفي علي شاه) خلافته إلى بعد شيء من النزاع وكانت شهرتهما دون شهرة أبيهما بكثير.

ومذهب الطاووسية عبارة عن دخول في الطريقة وتكمل خلقي في مراتب مختلفة كما عند الصوفية، ولا نعرفه إلا من المصدر الوحيد الذي بين أيدينا وهو: حاجي شيخ عباس علي كيوان القزويني الذي كان تلميذاً لحاجي ملا سلطان سنين طويلة، وهو يتضمن ثلاث مراحل، في المرحلة الأولى (طريقة مريد داري) ظهر الملا بأنه مجرد عالم ممن لا بد أن يكون موجوداً في غيبة الإمام ليكون ((مرجع التقليد))، وكان يقول: إن العلماء الآخرين لا يعملون بما يقولون، أما أنا فأني بفضل عملي أطالبكم أن تقتدوا، لكن معظم المريدين لم يذهبوا أبعد من ذلك لأنهم لم يحصلوا إلا الشك في العلماء الآخرين وفي القطب، وفي المرحلة الثانية ادعى الملا الإمامة، وزعم أن الإمام لم يكن أبداً مختفياً من حيث بدنه بل هو كان مختفياً باسمه، أي أنه لم يكن معروفاً (كمنام)، وقال لأتباعه: إن ما تطلبونه في الإمام موجود فيّ وما يطلبه الإمام من أتباعه يجب أن يكون عند مريدي: الطاعة، إعطاء الممتلكات، الإجلال، الاتحاد... الخ وهو أخيراً في المرحلة الثالثة ادعى لنفسه قدرة تكاد تكون إلهية فقال: إن المائة والأربعة والعشرين نبياً، وكذلك الاثني عشر إماماً، كلهم فيّ، فأنا خليفتهم جميعاً وممثلهم جميعاً، ولو أن واحداً منهم رجع، أو لو أنهم رجعوا جميعاً لأطاعوني ولما فعلوا شيئاً دون أمري، وكل ما يقع في عالم الطبيعة من مألوف وغير مألوف فهو يقع بأمرى وإذني بل بفعلتي بلا واسطة، وأنا المعنى الباطن للقرآن والصلاة والحج... أنا دائماً أعرج في السماء، وأنا دائماً في كل مكان على الأرض، وأنا حاضر في كل إنسان، ولا خفى ولا ظاهر مجهول لي أو خارج قدرتي، وكل ما أفعله فهو بأمر صريح من الله، والإلهامات الإلهية الخفية تنزل عليّ دائماً، وكل فعل للموتى أو الأحياء أو الملائكة ينفذ بأمرى، ومن أعرض عن شهواته وأطاعني دون سواي مدة اثني عشر عاماً صار الإنسان الكامل، وصارت له نفس جديدة لو قورنت بها نفسه السابقة لكانت كالبدن، أنا مصدر هذه النفس الجديدة للناس جميعاً، النفس الكلية في نفسي وبالرغم من أنني عطي كل فرد نفساً فإن نفسي تبقى كاملة في مكانها، وكل عصر يحتاج إلى شخص مثلي، وإلا لتفككت أركان العالم وتلاشت عناصر الطبيعة.

هذه المزاعم التي زعمها حاجي ملا سلطان والتي تجعله أشبه بإله لم يكن يصرح بها بل كان يقولها إشارة وإيحاءً بطريقته في معاملة السذج من أتباعه، فكان يقول مثلاً: لم يخل عصر

من ممثل لله في الأرض يكون هو ((المختار المطلق))، الذي يمتد تصرفه إلى كل الميادين: الميدان المدني، والسياسي والتديني والروحي والآخري، وهو ينسخ الشرائع السابقة أو يبقئها وهو يسمى: بيغمبر<sup>١</sup>، وإمام، وقطب، وغوث، وخدا<sup>٢</sup>، ومعبود أصلي، وهو يظهر على صورة مختلفة للناس جميعاً أو لشخص واحد، فمثلاً كان هناك موسى ثم علي وذريته، والجنيد وأتباعه ثم طاوؤوس العرفاء وأنا، وكل ما كان في كل الأديان واللغات والطرق فقد كان كذلك بواسطة هذا الشخص، وكان هناك دائماً غيب وظهور، ومن كان خاتماً بالنسبة لمن سبقه فهو فاتح بالنسبة لمن بعده ممن سيخلفه، بحيث يكون ذلك الشخص المذكور خاتماً فاتحاً ناسخاً ومنسوخاً في وقت واحد، ويكون إلى جانب ذلك نبياً ولياً وصياً موسى وقطب الأقطاب، وهو يمكن أن يوصف بأنه ((مركز دائرة خلافة الله)) فهو محيط الدائرة وهو في الوقت نفسه القطب الساكن أو هو ((منظفه أعظم الحركات السريعة غير المرئية، الذي هو ((مدير مدارات متوازية مختلفة الحركة)) هو شمس وهو كل الشموس، مخفي عن المريدين الذين لم يبلغوا بعد الكمال بفضل طبيعته الملائكية، وهو مرئي بقوته الملوكية للمريدين الكاملين رأوا الكائنات الملائكية (جشم ملكوت بينى<sup>٣</sup>)، وأحد هؤلاء الأشخاص الذين لهم هذه الصفات سيتحقق فيه الظهور الكامل، ولفظ ((خاتم))، ومفهوم الرسالة الختامية (حلال إلى يوم القيامة) كما يقال ذلك عن محمد عليه الصلاة والسلام، كل ذلك باطل، وفضلاً عن ذلك فإن رسالة كل منهم هي رسالة محمد، ومهما تغير الواحد منهم ألف مرة أو تجدد فإن الواجب أن يربط الرسالة بما قبلها على هذا النحو ولا يعتبرها شيئاً خارجاً عن ذلك.

وأخيراً فإن هذا الشخص عنده علم عام باطن قهري فيما يتعلق بكل الناس وكل شيء في العالم - علم يمكن أن يوصف بأنه قداسة فطرية مغايرة للقداسة الدينية التي يستطيع المرید تحصيلاً إذا بايع هذا الشخص (قطبه إذا كان) وعاهده على الطاعة التامة، وصيغة البيعة وشروطها يضعها القطب ولا يجوز مناقشتها.

وبالجملة فإن حاجي ملا سلطان الذي زعم، كما يحكي الشيخ كيوان، أنه وحد أديان الدنيا كلها، لم يستطع أن يستعمل المصطلحات الصوفية التي هي مصطلحات طائفة واحدة في ديانة واحدة هي الإسلام، لكن نظراً لأن درجات السلوك وبعض المفهومات الأخرى هي رغم هذا صوفية فإن الشيخ كيوان يتكلم عما يسميه التصوف الطاوؤوسي.

وقد رأينا فيما تقدم أن حاجي ملا سلطان يخالف مذاهب الصوفية في أنه يضع القطب فوق الأئمة والأنبياء، وهو إلى جانب ذلك لا يعتبر أن من يتبع مذهبه ناج وطاهر من الشرك (ناجي وبالك) كما يعتبر الصوفية من لا يسلك طريقته، بل هو يزعم أن غالبية المسلمين عند إخراجهم النفس الأخير ينضمون إلى مذهبه.

أما فيما يتعلق بالتربية الروحية للمريدين فقد توسع فيها توسعاً طريفاً تحت عنوان: فكر أو عنوان: صورة مرشد (صورة المرشد) وهي تبين كيف أن صورة القطب وإرادته تحلان درجة

درجة (أربع درجات في الجملة) محل اسم الله الذي يجب أن ينقش على قلب المريـد الذي يزاول التأمل الباطن والذكر في الوقت نفسه، وهو شيء عسير جداً، إذا لم يكن مستحيلاً، إلا على القليلين من المصطفين.

على أن هذا التعليم الطاوؤوسي ضد الإسلام بلا شك، وهو خصوصاً ضد مذهب الشيعة ولا سيما ما يتعلق برأي الشيعة في الإمامة، ويقول حاجي ملا سلطان في كتابه: ((مجمع سعادات)) (الذي لم نستطع الاطلاع عليه)، بحسب حكاية الشيخ كيوان، إن عدد الـ ١٢ لا يشير إلى أشخاص من لحم ودم، بل القداسة المطلقة تفسر بأنها ذخيرة من الروحانية ذات اثني عشر نوعاً، لكن لا يوجد عدد معين للأفراد في كل نوع، فصفة النبوة لها ١٢٤٠٠٠ نوع (خلافًا لعدد الـ ١٢ الذي تقدم ذكره) ويجوز أن يأتي في الدنيا من كل نوع أنبياء كثيرون بلا تصنيف محدد، فالخاتم لا يتحتم أن يختتم السلسلة، ويمكن القول إنه بعد مجيء الخاتم تأتي أنواع أخرى لم تكن ظاهرة قبل الخاتم أو أنه إنما قد جاء عدد من النوع وبعد ذلك يأتي آخرون، وهذا بالنظر إلى أن عدد الأفراد في كل نوع و صنف غير محدد ولا نهائي، هذا إلى أن حاجي ملا سلطان يزعم أن حديث ((علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل)) يدل على أن لقب الخاتم إنما يدل على درجة من القداسة، وعنده أن المعنى الصوفي الخفي للقطب يتعلق بالنوع، وعلى هذا يجوز أن يكون في كل عصر أقطاب كثيرون، ومهما يكن الأمر فإنه فيما يتعلق بالدرجة الثانية عشرة المسألة مسألة نوع بلا شك وليست مسألة شخص معين، واختفاء الإمام الثاني عشر يجب أن يفسر على أنه اختفاء نوع، أي أننا يمكن أن نقول إنه النوع المختفي بين الأفراد، ونستطيع، من غير دخول التفاصيل، أن نقول إن مرتبة الإمام في نظر حاجي ملا سلطان فوق مرتبة النبوة، وعلى كل حال فإن تعليمه السري، يجوز إنه كان يقول إن الإمام هو ذلك الشخص الذي يوجد دائراً في العصور، ثم إن هو أحدث تجديدات في الدين فإن هذا الشخص له أيضاً صفة النبوة.

أما فيما يتعلق بالمراسم الطاوؤوسية فإنها تبدو سمات معينة ترجع إلى جماعة ((أهل حق)) وخصوصاً في احتفال الدخول في الجماعة ((التشرف))، وذلك في حضرة المرشد (الدلال)، وما يعقب ذلك من بيعة المريـد أمام القطب ذاته فيتعهد المتخراط في الجماعة بالنزاعات هي الطاعة، والمحبة، وإسرار الذكر، وخدمة اثني عشر عاماً، وتقديم ديك جوش (القدر التي تغلي) ويقدم خمسة أشياء: جوز، وخاتم، وقطعة عملة، وقطعة من القماش، وحلوى (وقد صار لها ميزة خاصة)، ويقول الشيخ كيوان إن عادة تقديم ديك جوش (لحم مطبوخ يقدمه المريـد بأن يحمل القدر على رأسه إلى القطب ليفرقه على ضيوفه) موجودة عند جماعة علي إلهي (فالعادة أنهم يحملون في كل أسبوع مرة القدر المطبوخ لرئيسهم وذلك بدلاً من الصلاة الفائتة، فإذا قال الرئيس: ((هديتك مقبولة)) قبلت الصلاة عند الله، وهم يسمون هذه العادة باسم ((نياز)) وهو العطاء الذي يتميز عن الـ (نماز) أي الصلاة، فإذا

سئل أحدهم هل صليت؟ أجاب: لا، لكنني قدمت (نياز) ويظهر أن عادة الديك جوش ترتبط عند الطاؤوسية بالعادة المسماة العقيقة التي تكون في اليوم السابع من ميلاد الطفل، فعند ذلك يذبح الوالدان حملاً ويعطيان اللحم للفقراء، فهنا الشبه بين الوليد والمريد، إذ أن المريد - في زعم القوم - يتلقى نفساً جديدة.

أما فيما يتعلق بلفظ (نياز) فهو عند الطاؤوسية أيضاً، لكنه يطلق على اجتماع لا تقدم فيه هدايا لكنه يشتمل على مراسم معقدة جداً لا تقتصر على التشارك في الإعداد بل الاحتفال نفسه، ويمتد كيوان عن بيان معناها الحقيقي، فيما يقول إن جماعة (علي إلهي) وجماعة الصوفية (في واد واحد).

الأولون، وهم يتمسكون بالحقيقة، أفضل من الآخرين الواقفين عند الطريقة، وفي أول الأمر كان رئيس جماعة ((علي إلهي)) وحدهم هو الذي يقيم شعيرة كسر الجوز (جوز شكست) وكان على أقطاب الصوفية أن يعطوه لهذا الغرض الجوز الذي يأخذونه من مريديهم، والذي يستحق الانتباه فيما يتعلق بالطاؤوسية ذلك الشبه بين بعض مراسمهم ومراسم جماعة ((أهل حق))، وهذه العلاقة لا يصح إغفالها رغم الفوارق التي لا بد من ملاحظتها أيضاً، إذا نحن تذكرنا الدور الذي لعبه بابا طاهر عند ((أهل حق)) باعتباره أحد المظاهر الإلهية وتذكرنا أن ملا سلطان على كنابادي ألف شروحا بالعربية والفارسية لكتاب بابا طاهر، بل إن ستيد F.M.Stead (في مجلة ١٩٣٢، M.W، ص ١٨٤-١٨٩) يذكر أن ((أحد فروع جماعة علي إلهي، ويعرف بفرقة الطاؤوسية، يقدر الشيطان، لكن هذا من شأنه أن يشير إلى علاقة بالبريدية، لم نستطع أن نجد أية إشارة لها، لكن تعاليم الطاؤوسية على العكس من ذلك، وبحسب ما نستطيع أن نحكم فهي قد تأثرت بأراء البابية تأثراً قوياً (وإن اتهام حاجي ملا سلطان بالبابية لم يكن مجرداً من كل أساس) وهي لذلك تعطينا مثلاً مميزاً للتلفيق الحديث في المذاهب الفاسدة بين دوائر الشيعة، وهو مثال قد تصور على طريقته الخاصة أفكاراً صوفية وأفكاراً لجماعة علي إلهي وأفكاراً بابية.

المصادر: بحسب ما نعلم لا توجد حتى الآن دراسة خصصت للطاؤوسية، وفيما يتعلق بالمراجع لا نستطيع أن نذكر أكثر من كتب الشيخ كيوان التي أخذنا منها المادة التي كتبناها وهي كتاب راز كشافي بأسخ بنجاء برسس است، وكتاب بهين سخن كي دوازه برسس است، وقد كتبنا عام ١٣٥٠هـ ونشرنا في طهران حوالي ذلك الوقت.

(١) كلمة فارسية معناها ((نبي ورسول)). (٢) كلمة فارسية معناها ((رب)).

(٣) عبارة فارسية معناها ((العين المبصرة للملكوت)).